
www.kotobarabia.com
القناع
إبراهيم سعفان
Gere

قصص قصيرة

القنـــاع

إبراهيم سعفان



إهداء.. .... - ٤ -

الببغاء .... - ٥ -

حب ا .... - ٩ -

القنـاع .... - ١٥ -

انفجار .... - ١٨ -

أنا والطفل والقطة... - ٢٠ -

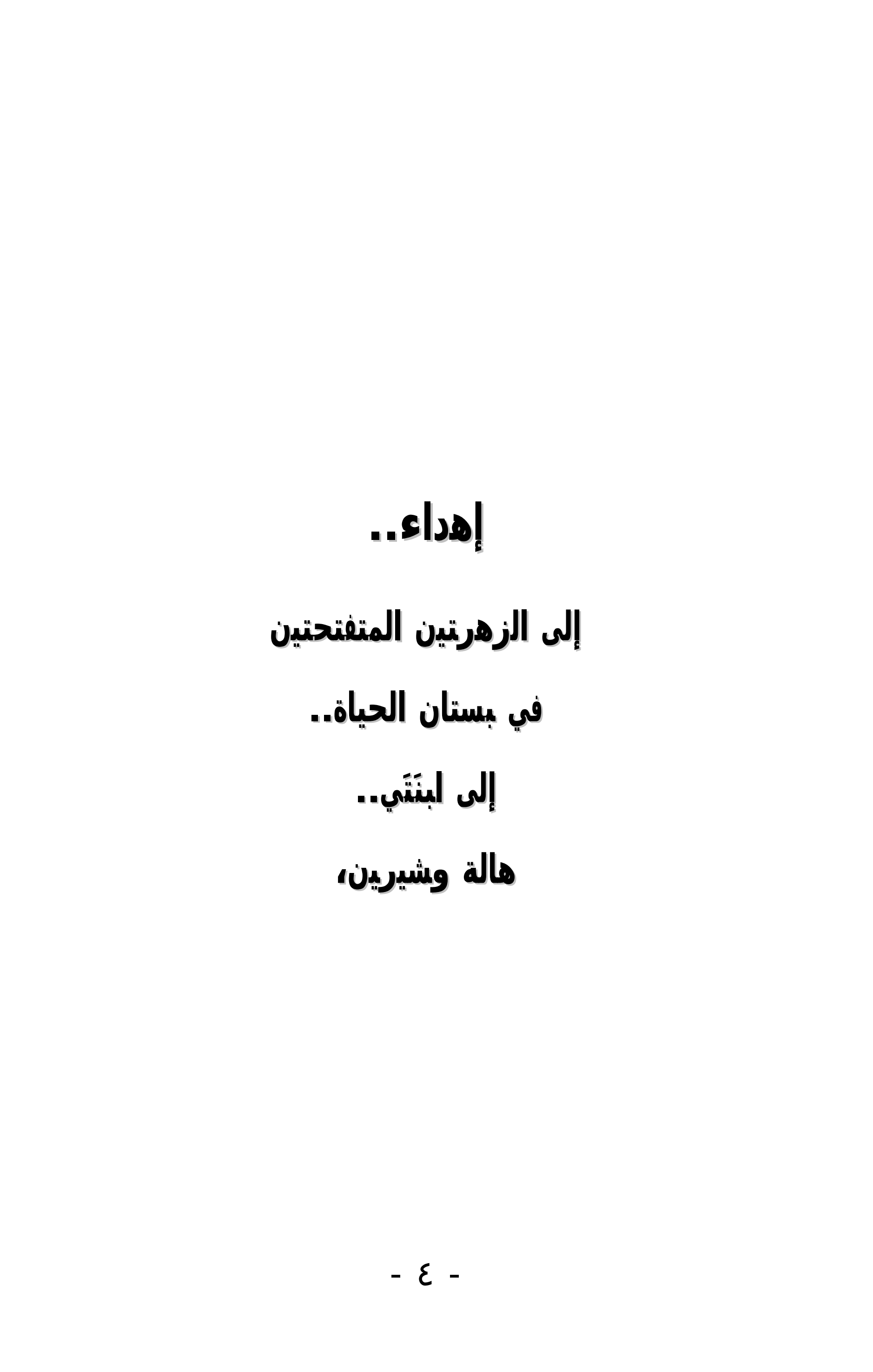
لا يا صغيرتي .... - ٢٦ -

وعاد الأمل .... - ٣٠ -

وداع... - ٣٤ -

الهدية... - ٣٩ -

(المؤلف) .... - ٤٣ -



إهداء..

إلى الزهرتين المتفتحتين

في بستان الحياة..

إلى ابنَتَي..

هالة وشيرين،

الببغاء

حول الموقد جلسنا... سرى الدفء في الضيف الغريب القادم من بطن الليل الشتائي... تمطى.... تثاءب... بانت ملامحه الثعبانية... اقشعر بدني أحسست بانقباض... الثعبان يبتسم... يخرج لسانه المشقوق... يتكلم... الثعبان يزحف نحوي... يلتف على جسدي... أقاومه... يقاومني... أطعنه بالسكين... أطعن نفسي... أنزف... يزداد التفافا... أطعنه أطعن نفسي... أنزف..أشرب بيدي في الهواء... أصيح: النجدة... تأتي زوجتي... أصبح الثعبان اثنين... يزحف الآخر إلى زوجتي... يلتف على جسدها... تستسلم في حذر... أصيح... يلتف على جسدها... تستلم في حذر... أصيح... النجدة... النجدة... لا فائدة... راحت زوجتي في حذرها الغيبوبي... دمي ينزف... تخور قواي... يفح الثعبان في أذني كلمة... نكتة... أضحك... تجلجل الضحكة... زوجتي في حذرها مستلمة... في الصباح حكيت لزوجتي... ضحكت... قالت: أحلام... ضحكت زوجتي... ضحكت... جلجلات الضحكة... هزني الضيف متسائلا عن سبب

الضحك... من الحلم عدت... قلت لا شيء... هل أعجبتـك قصصي... أي قصص؟... التي كنت أحكيها لـك الآن... لا تؤاخذني... لم أسمع منها شـيئًا... لمـاذا تضـحك إذن؟... تذكرت شيئا قديما... مددت يدي للضـيف بكـوب الشـاي وسألته: من أين جئت؟ من البلاد البعيدة... مـاذا تعمـل؟ - رحالة... ماذا تفيد من ذلك؟- مغـامراتٍ... وحكايـات... وأقتل الملل... و... ماذا؟ - وأشـياء أخـرى لا تهمـك... العينان الثعبانيتان تبرقان في الضوء الخافـت الـذى يلـف الحجرة الصـغيرة... تتحـرك الشـفتان ويخـرج اللسـان المشقوق... يحكي بعضا مـن مغامراتـه... ويقـدم ألعابـا سحرية... مثيرة مشوقة... تنضم بقية أسرتي إلى المجلس... تعجب زوجتي بحكاياته... عينا الثعبان تبرقان... الانقبـاض يعتصر قلبي... أضحك لأخفي هذا الشعور... الضيف يستمر في حكاياته... أخرج ببغاء صغيرا من حقيبته... أثارنـا... بهرنا... لم ننم في تلك الليلة حتى الصباح... وكانت ليلة...

ومضت بعدها ليلتان قضيناهما في بحر الحكايات والألعاب السحرية وتقليد الببغاء... انتظرت أن يرحل الضيف... لم يرحل... تلمس الأعذار... ضاق الصدر به... أفراد أسرتي سعداء به... لا يفارقونه... حدثتُ زوجتي بضيقي... اعترضت... إنه رجل طيب... ولا يمثل عبئا علينا... إنه لا يغادر حجرته... أنت دائما شكاك... صدقت كلامها... تركته لم أحادثه في شيء... أخذ يتملقني... أعطاني الببغاء... رحت أجلس عصر كل يوم أمام بيتي... أحكي للأصدقاء حكاياته... والببغاء يقلدني... وهم في الدهشة غارقون... كل يوم يزداد الأصدقاء... وكانوا من قبل قلة... لقد أصبحت مهما بالنسبة لهم... الضيف داخل البيت لم يشأ أن يراه أحد... أنا في كل عصر أعقد مجلس الأصدقاء أحكي الحكايات... وألعب الألعاب... والببغاء يقلدني والناس حولي سعداء... ذاع صيتي في القرى المجاورة... أخذوا يدعونني... بدأت أتغيب عن بيتي... سهوت عن الضيف... تكرر غيابي... طال غيابي ليالي وأياما... عدت ذات مرة إلى البيت محملا بالهدايا... وجدت الصغار الثلاثة أمام البيت يبكون – ماذا حدث – أمنا ذهبت

مع الضيف وتركتنا – إلى أين؟ - لم تخبرنـا – اسـكتوا... بعد قليل ستأتي... دخلت البيت وضعت الهـدايا... وجـاء العصر... جلست أمام البيت... وجاء الأصدقاء... ورحـت أحكي الحكايات... والببغاء يضحك... ويضحك... أنهره... يضحك... مر العصر وبعده عصور ولم تحضر زوجتي... وأنا أحكي حكاياته... والببغاء يضـحك... صـرخت فـي الناس... زوجتي ضاعت... الببغاء يضحك... يتركني هـو أيضا... الناس لا يهتمون... لا يبـالون... فـي حكايـاتي غارقون... أصرخ... لا يبالون... ويحكون ويحكون... وأنا أمام البيت أصرخ... أحكي حكاياته... وألعب ألعابه... أقلـد ببغاءه... الكل يحكي في البيوت... فـي الطرقـات... فـي المكاتب... وعندما يعودون... يجدون شيئًا قد ضاع، وفـي الحكايات غارقون... وسرت العدوى في القرى المجاورة... وتشرق شمس وتغرب شمس... وأنا أمـام المنـزل أحكـي الحكايات... وأقلد الببغاء وحدي...

حب ا

نزلت من الأتوبيس على أول الطريق الزراعي المـؤدي إلى قريتنا.. جالتُ بنظرة سريعة بين الواقفين على المحطـة بحثا عنه.. لم أجده... دققت النظر ثانية، قد يكون مختفيـا وراء أتوبيس أو جالسا داخل مقهى... لم أجـده... حملـت حقيبتي وسرت وئيدا.. مؤملا أن يلحق بي... قطعت نصف الطريق... لم يأتِ... أحسست بضيق... انفجر قلبي... خير يا رب... هذه أول مرة يتخلف فيها عن انتظـاري... إنـه يعرف موعدي كل شهر أكثر من أي فرد في أسـرتي... لا ينساه أبدا... ولا يشغله عنه أي شيء مهما كان... أخرجـت علبة السجائر... أشعلت واحدة... تشاغلت عـن وساوسـي ووحدة الطريق بالنظر إلى حقول القطن الناصعة البياض... نفسه صافية وبيضاء مثل القطن... أرسلت نظري بعيدا، قد أراه قادما... لا فائدة... قلبي يدمى... اقتربت من القرية... قلبي تزداد دقاته... يسيطر على شعور مبهم... اللهم اجعلـه خيرا... ربنا يستر، عله لم يصب بسوء... عل أحـدا مـن الأسرة لم يصب بسوء...

قابلني بعض الصبية... صاحوا عندما رأوني... عم "حب ا " مـات... وقفـت مكـاني... صـرخت... كـذابون... كذابون... أفقت من الصدمة... قلـت نـوع مـن التهـريج الصبياني معي عندما أسألهم عنه... سرت وئيدا... علامات استفهام كبيرة تلتهمني... هل صحيح؟ هل ممكـن.؟ ولمـاذا لا... إني أعرف نياتهم نحوه... خير يا رب... قـد يكـون تهريجا... دخلت القرية... قابلني بعض المعارف... البقيـة في حياتك... "حب ا " مات... الخبر صحيح... عملوها... البقية في حياتك... يضحكون... الجميع يضحكون على غير عادتهم... قـال أحـدهم: ارتحنـا منـه... ضـربته... آه يا بلد... كان يعرفكم جميعا من داخلكم... رأيـت نظـرات الشماتة... البسمات الساخرة... سأظل وحيدا... إني أكرهكم، مثلما تكرهونه... كان لا يكره أحدا... النقطة المضيئة فـي قريتنا... لذلك أحببتـه... رفضـتهم جميعـا... بسـيط... صريح... أسرعت الخطا إلى منزلي لأعرف الحقيقـة مـن أبي... صحت عندما دخلت...

- عملتوها في عم حب ا ...
- هدي نفسك يا ابني... حا أقول لك كل حاجة...

- قتلتوه... دمه في رقابكم كلكم.
- ما تقتلش... كان سهران معانا في دوار العمدة... والسهرة طالت فاستأذنت وسبتهم... في الفجر ما سمعناش صوته ولا دقات عصايته على الأبواب زي العادة... ما ظهرش طول النهار، من يومها وهو ما ظهرش...
- ارتحتم طبعا... تخلصتم منه... علشان ما يقلقش حد في صلاة الفجر...
- "يا ابني ريح نفسك... أنت عجبك فيه إيه؟!... راجل عبيط وبيخرف ووشه شؤم"...

"رغم كلامكم ده.. كان يخوفكم لما يتكلم ببساطة.. كنتم تجروا وراه وتشتموه علشان بيقول الحق.. مسكين ما يعرفش يخبي حاجة يقول اللي عايز يقوله بطريقته. علشان كده حبيته. كنت فاهمه كويس. إنما أنتم ما كنتوش عايزين تفهموه". استأذنت من والدي.. دخلت غرفتي. استلقيت على أول كرسي. صحيح اختفي، أم قتلوه؟! عم حب ا نقطة الطهارة في قريتنا. لا أحد يعرف عمره. سألت والدي مرة قال إنه كبر رآه كما هو الآن. لم يتغير.. حديثه حديث

الطفل. لا يطلب شيئًا من أحد.. لا يدخل بيت أحـد.. كبـار القرية يكرهونه لأنه يقول لهم الحقيقة.. العمدة مرة عمل ليلة لأهل ا . واجتمعت القرية وامـتلأت البطـون. وانطلقـت الألسنة بكلمات المديح المزيفة. كان عم حب ا موجودا. لم يأكل لقمة واحدة. سأله العمدة: مبسوط يا حب ا ؟ نظر إليه ببراءة وأجاب: مظاهر.. اللقمة الطاهرة.. ربنا رب قلـوب. هكذا كانت طريقته في الكلام؛ كلماته متناثرة. مبهمة. ضحك المنافقون. ضربه العمدة على قفاه. جرى من أمامه مبتسـما. كانت الابتسامة لا تفارق وجهه. غلى الدم في عروقي وقتها. كتمت غيظي لأنه العمدة.

آه يا عم حب ا . أريدك الآن. أشعر بالوحدة. لم يفهمك أحد. الناس السذج قالوا عنك عبيط. كان يقضي ليله متجولا في حواري القرية. أنا صديقه الوحيد، لا أعرف متـى ينـام ولا أين ينام؟ كانوا يتشاءمون منه؛ لأن هوايته رفع البيـرق على النعش. ويسير تحته ويسير في حواري القريـة. يـدق عليها ويصيح. اكرمنا يا رب. كل من يراه يشتمه. الصـبية تطارده بالحجارة. ينظر لهم ويضـحك. الرجـال. النسـاء يطاردونه بالحجارة أيضا. كان ينظر لهم ويضـحك. كنـت

أدافع عنه. أشتبك معهم جميعا في معارك. ورغم هذا كنت أحس بأنهم يخافون منه. يرتعدون عندما يرونه كنت أحس بأنهم يريدون التخلص منه. عجبت.. عم حب ا له تصرفات عجيبة مع أهل القرية. عزيزة بنت شيخ الخفراء. كل أهل القرية يحبونها ويطلبون رضاها. كان عندما يراها يشيح بوجهه عنها.. ويبتعد عن طريقها.. لا يكلمها.. كانت ترتعد عندما تراه.. تنادي عليه لا يرد..

يصبح.. الستار موجود.. الستار موجود.. بينما سعدية اليتيمة التي يجمع أهل القرية على سوء سلوكها. ويتجنبونها.. سعدية مرحة وخفيفة، وتضحك مع كل من يقابلها.. يقولون عنها حكايات كثيرة.. عندما يقابلها في الطريق يقبل عليها ويضاحكها وكان يصيح.. ربك موجود.. للصبر حدود.. الحكم من فوق.. وينظر إلى السماء.. عم حب ا عجيب.. كنت أحس بأنه يعرف أهل القرية واحدا واحدا.. يعرف عنهم كل شيء.. ولا يخفي عنهم شيئًا.. كانوا يعتبرونه عبيطًا.. كانوا يحبونه في صمته.. يكرهونه عندما يتحدث.. تآمروا عليه.. قتلوك يا عم حب ا .. أين أنت الآن أنا محتاج إليك.. قتلوك ليستريحوا منك.. ليتخلصوا من القلق والخوف.. أين أنت الآن يا عم حب ا . دخل والدي الحجرة مسرعا.

- مالك يا سعيد بتصرخ ليه. ما تعملش في نفسك كده، حايجيلك من ده كله إيه؟
- مش فاهمينه. راح عم حب ا .
- قوم يا ابني نام شوية ترتاح.

أطفأت المصباح.. تمددت على السرير بملابسي.. وقبل الفجر.. سمعت صوتا ينادي.. سعيد وسمعت دقًا على بابنا، وعلى الأبواب الأخرى كعادته.. ينادي سعيد.. إنه هو.. صوته.. ودقاته المعروفة على أبواب القرية وقت الفجر.. لقد عاد عم حب ا .. قفزت مسرعا.. فتحت الشباك.. لم أر أحدا.. ناديت.. عم حب ا .. رأيت والدي يطل برأسه من الباب.. فُتحت الأبواب الأخرى وأطلت منها رءوس.. ناديت.. عم حب ا .. الصوت يتردد في صمت القرية.. دقاته تُسمع من بعيد.. قال والدي:

هذه أول مرة نسمعه فيها منذ اختفي.. الصوت يتردد.. دقاته تُسمع من بعيد..

القنـاع

الوجه المتورد المنتفخ القابع خلف المكتـب يطـاردني.. ذنبي أني أتطهر. جئت إليه. أخلع جلدي المتلـون.. وألقـي وجهي الممسوخ.. يتهددني بالنفي.. صرخت في وجهه: حتى لو ذهبت إلى آخر العالم.. كفي ما فعلناه.. حرام كم ضيعت من أرزاق..

عينا الوجه المتورد المرسوم على حائط حجرتي الباهـت تبرقان.. ينفتح فمه كالبركان.. كلماتـه الناريـة تحرقنـي.. صرخت لا بد أن أخلع جلدي المتلـون.. أضـرب الحـائط بيدي.. الوجه المتورد الساخر ما زال مرسوما على الحائط.. يفح في خبث.. أين تذهب مني؟.. أنـا أعرفـك جيـدا.. لا تستطيع الابتعاد عني.. قلت: هذا وهـم.. لا أريـد أن أرى وجهك.. كفي ما فعلناه بالآخرين.. قال: الوهم ما أنت فيه.. أنا أعرفك جيدا.. أنا أجري في عروقك.. أنت تريد حقـا.. ولكنك لا تستطيع أن تنفذ ما تريد.. قلت: الأمر كله قصاصة صغيرة أخط عليها بضع كلمات وينتهي كل شيء.. وأتطهر منك.

ابتسم الوجه المرسوم على الحـائط سـاخرا.. حـاول.. وسنرى.

تمددت على الكرسي القديم.. أغمضت عيني.. ورحـت بعيدا.. الوجه الممسوخ المصفوع دائما.. كرهـت الركـوع والانكسار والتمسح بكرسي العرش الـذي أنظفـه بلسـاني المشقوق كل يوم.. كرهت منذ زمن حتى لا يعود طعم المر إلى فم الأولاد.. رحت بعيدا بعيدا.. أبحث عن الشاطر حسن ذي السيف المرفوع من أجل سـت الحسـن.. إنـي أسـمع صوتا.. إني أعرف هذا الصوت.. ملعون هـذا الصـوت.. الذى علمني أول درس.. أن أتلقى الصفع.. لكي أكسب لقمة العيش.. مرفوض الآن هذا الدرس. كفي ما فعلـت.. فليعـد المر إلى فم الأولاد.. يأتيه صوت الأولاد الباكي.. آه.. هـذا هو كسر الوسط.. يأتيه الصوت.. ألم أقل لك.. فكر في المر الفائح من فم الأولاد.. يا جبال الصبر.. معذرة يـا شـاطر حسن.. لم أقو على حمل السيف.. معذرة يا شـاطر؛ لأنـك لم تذق طعم المر.

صوت صراخ طفل في الخـارج.. ينـتفض الأب مـن غفوته.. ما هذا الذي رأيت.. يأتيه الطفل.. بابا: أريـد لـبن العصفور مثل الحدوتة.. ربت على كتف الطفل.. وهمـس.. معذرة يا شاطر حسن.. لقد سمعت الطفل.. وتمتم.. أنا قادم إليك يا هذا الوجه المتورد.. وأمسك الأب بـالقلم وكتـب.. سيدي معذرة..

انفجار

انفجر البركان.. تتناثرت أشلاء الكلمات.. تتشققت الأرض.. آلاف الأفواه الكهفية.. ابتلعت الأفواه الكلمات.. أبحرت.. أبحث عنها.. أغوص.. أغوص.. أتحول أيضا أشلاء.. ألتصق بجدار الرحم الكهفي.. أتشبث حتى لا أذوب.. آلاف الأيدي نبتت.. آلاف الأقدام.. لم تنجح في النجاة.. أذوب.. أذوب.. أتحول إلى بقعة حمراء.. في التيه اللانهائي.. أبحث عن نجمة الفجر.. النجوم يلفها الغمام.. أصرخ.. تتسع البقعة الحمراء الصفراء.. تغرق التيه اللانهائي.. يهتز الرحم الكهفي. ينقبض ينبسط.. أصرخ.. لا.. لا.. لا.. أريد.. ينقبض وينبسط.. تترجرج البقعة الحمراء الصفراء.. تتسع.. تغرق التيه اللانهائي.. الرحم الكهفي يرتعش.. أصرخ.. لا.. لا بد.. لماذا؟ أنت كثير السؤال – لا معنى للكلمات – الكلمة.. شجرة - كانت – لا ما زالت.. أنت لم تفهم.. أنا مثل الناس- الناس لم تفهم الدرس الأول – ولذلك عدت إليك للأمان.. إنهم يريدونك.. لا أريدهم.. كم عذبوني.. الرحم الكهفي ينقبض.. تنقبض

البقعة الحمراء الصفراء.. ينبسط الرحم الكهفي.. تتمدد البقعة الحمراء الصفراء.. أشلاء الكلمـات.. آه تلـك الكلمـات.. فجرت البركان.. تبحر بلا أشرعة.. ضد التيـار.. أحـاول جمع الأشلاء.. تسقط كل المحاولات.. لا بـد أن أجمعهـا.. لا أفهم.. قالت.. لن تفهم سأحاول.. عندما تحاول.. ينقـبض الرحم الكهفي.. أختنق.. أصرخ.. تضيع الصرخات.. فـي أعماق الأعماق.. الألف يد تتشبث.. يزداد الانقباض.. الألف يد تتشبث.. أصرخ.. في أعماق الأعماق.. تضيع.. تـأتيني صرخات من عالم فوقي.. ترجوني.. تحـذرني.. ينقـبض الرحم الكهفي.. الصوت يحذرني: تشبث.. تشـبث.. يـزداد الانقباض.. أصرخ.. احذرْ احذرْ..

الألف يد تتشبث، البقعة الحمراء تتجمع.. تتحدد.. ينقـبض الرحم الكهفي.. الصرخات الآتية من بعيد.. تتوسل تركـع.. نريدك.. نريدك.. أرفضكم.. يبكون.. يبكون.. أشلاء الكلمات المبحرة تعود.. تتجمع.. تتكـون الكلمـات تمتـزج بالبقعـة الصفراء.. يخمد البركان.. تنغلق الأفواه تروح الصـرخات.. يخمد البركان.. تـروح الصـرخات.. الأظـافر المتشـنجة ترتخي.. تخرج من أعماق الأعماق الأوراق.. مكتوبة عليهـا الكلمات.. ينداح الغمام.. تلوح نجمة الفجر في الأفق البعيد.

أنا والطفل والقطة

الحب الذي فات.. مات.. لا.. لم يمت بل بـين الحنايـا كامن.. تثيره الذكريات كلها تهيج. دق جرس التليفون جـاء صوت من بعيد.. صوت موسيقى: ماذا تفعل؟

- لا شيء..

وحيد في الحجرة مع الماضي والحاضر والمستقبل.

- أنا لا حاضر لي ولا مستقبل.. لأني مع الماضي.. ولكن.. هذا عذاب.. العذاب سعادة – ما زلت كمـا أنت كما عرفتك.. يا إلهي! إنها هـي.. الصـوت صوتها.. وكلماتها نفس كلماتها.. لكن كيف يحدث هذا والسنوات والمسافات تفصل بيننـا.. والأمـل مقطوع في العودة.. يا إلهي.. هل هي نفسها؟

- نعم يا.. ماذا؟ لست أنا هي. ولكنك تتحدثين مثلمـا كانت تتحدث معي عندما ترى اليأس ينهشني.. لقد كنت.. لا تكمل.. أعرف ماذا ستقول.. ما زلت كما أنت لم تتغير..

- ليس ما أنت فيه هو النهاية.. كمـا تتصـور.. أو تتوهم. من أنت؟ إنك هـي.. إنهـا وراء الغمـام. ولكنها وعدتني أن تعود.. لن تتركني وحيدا ولكـن لم تعد.. ومن يومها وأنا أنتظـر.. عنـدك قصـر نظر.. غيرها كثيرون – اسكتي.. اسـكتي.. مـن فضلك.. أغلقي التليفون.. أو سأغلقه أنـا.. يغيـب الصوت الموسيقي.. بعيدا.. بعيدا.

وضعت سـماعة التليفـون تحركـت بالكرسـي الـذي لم أفارقه منذ سنوات.. لا أدري لماذا؟ ولكن أوامر الأطبـاء لا أعرف لماذا؟ أشعر بأني أستطيع السير، أقول لهم مرارا.. ولكنهم يصرون على بقائي رهن الكرسـي ذي العجـلات، لا أخفيكم سرا.. غافلت من في البيت مـرارا وحاولـت أن أترك الكرسي مجرد محاولة، العجيب أنني لم أستطع رغـم إحساسي بأنني سليم.. آه.. تذكرت تحركت لحظة.. متـى.. متى.. تذكرت عندما رأيت الطفل الصـغير يحبـو نحـوي مبتسما.. يداعبني أحاول الاقتراب منه.. الطفل يبكي.. القطة الصغيرة تخربشه بأظافرها.. تدغدغه بأسنانها أحاول الدفاع عنه.. لا أستطيع.. الطفل يبكي.. القطة تكرر محاولاتهـا..

في نظرها أنها تداعبه.. أحاول إنقـاذه.. أتحـرك.. ولكـن يجري الطفل بعيدا.. فشلت المحاولة.. تجري القطة خلفـه.. ينظر إلي مبتسما.. أنا لا أبتسم.. ماتت البسمات منذ زمن.. انحط محطما.. أنظر إلى الصورة.. صورتها المعلقة علـى الحائط.. أهمس: أنت السبب.. أنت الماضـي.. أنـت كـل شيء.. لا أرى.. لا أسمع أحدا.. نصحني الأطباء أن أنسى.. لكي أُشفي.. لا بد أن أنسى.. ولكنـي أرفـض.. تركـوني للزمن.. تصوري.. يقولون الزمن.. مخطئون.. مخطئـون.. ضاع الزمن بالنسبة لي.. قالوا ستظل رهين هذا الكرسـي.. قلت.. هذا ما أتمناه.. الصوف الدافئ، يـأتي مـن كهـوف أعماقي، يملأ الحجرة.. الصورة تملأ الحائط.. تحتـويني.. أما زلت تفكر في.. تعيش في ماضينا.

- كيف أنساك.. قلت لك في تلك الليلة.. إنني ذاهبـة ولن أعود.. ساعتها بكيت.. وأردت أن تأتي معي.. ولكن موعـدك لـم يـأتِ.. يجـب أن تنسـى.. لا أستطيع – أنت تسجن نفسك.. مـا أحلـى هـذا السجن معك!

يدق جرس التليفون.. يأتي الصوت الموسيقي صـوتها.. قالت بلهفة – ها أنت تعودين كما وعدتني.. متى أقابلك؟ ترن ضحكاتها في أذني.. الصوت القادم مـن كهـوف أعمـاقي يخفت.. الصورة المعلقة على الحائط تعود كما كانت.. قالـت لماذا تضحكين.. ما زلتَ كما أنتَ.. تعيش مـع الأوهـام.. لست أنا هي.. ما اسمك؟

- ليس مهما.
- أريد أن أعرف اسمك.
- عندما تصبح حيا.
- ماذا تريدين مني؟.
- أريدك.
- لا أنفعك.. فأنا ملكها.
- بل ملكي أنا.. وسوف ترى.
- أنا لست ملكا لأحد.. إلا هي.
- يكفي هذا الآن.. ما دمت تحاورت معي.. ضـحكة طويلة تنساب عبر أسلاك التليفون.. أصيح بعصبية – أنت مـؤامرة.. أعـرفهم.. إنهـم يكرهـونني يكرهونها.. كانت – ما زالت.

أما زلت تقول كانت.. يغيب الصوت.. يتلاشـى.. يلفهـا المجهول.. يرتمي النظر على الحائط.. على الصورة.. أهيم في نظرات عينيها.. أهمس.. الكل يحاصـرني.. يريـدون التفريق بيننا.. أنا فعلا بعيـدة عنـك يريـدون أن يسـلبوا ذكرياتي، قلت لك مرارا: الماضي قبر يدفن فيـه الإنسـان نفسـه، الإنسـان الضـعيف.. الماضـي يأكـل الحاضـر والمستقبل.. انظر إلى حالك.. إنني أرثي لك.. الحياة أقوى.. إلا يسعدك حالي الذي وصلت إليه من أجلك – لا يسعدني.. يأتي الطفل يحبو عند قدمي.

ينظر إلي... القطة بجواره.. صغيرة مثلـه.. نداعبـه.. تداعبني بأظافرها.. بأسنانها.. الطفل يبتسـم يرفـع يديـه.. يحاول الوقوف.. يتشبث بالكرسي.. القطة تقلده.. تقفز هـي على حجري تتشممني.. تهمس في أذني.. أضحك.. بعـدما نسيت الضحك.. وحيدا كنت في حجرتي تعود القطة تهمـس في أذني.. تقول شيئا.. أفهمه.. من لمساتها.. من أنفاسـها.. أضحك تقفز على كتفي تلعب في شعري.. الطفل يضـحك.. يكرر المحاولة لا ييأس.. يجذبني من ثوبي.. ينظر إلي فـي تحد.. يرفض الاستسلام.. أمد يدي إليه.. يرفض في عناد..

يصر أن يصعد إلى دون مساعدتي.. يصعد.. يداعبني.. منذ زمن لم أداعبه.. لم أشعر به.. لم أنظر إلى عينيه.. كم همـا جميلتان صافيتان.. هادئتان.. نسيت نفسي معهمـا.. الـدماء تجري في عروقي.. أداعبهما.. رمقت الصورة لم أجـدها.. اختفت.. لا أثر لها. يدق جرس التليفون.. الصوت الموسيقي يأتي واضحا – أهلا يا.. ضحكت في نشوة.. ضـحكت أنـا أيضا.. اختلطت ضحكاتنا.. تحادثنا بالضـحكات.. قالـت: موعدنا اليوم – نعم اليوم.. مع الغروب – لا مع الشروق – موافق.. الطفل يطوقني بذراعيه.. القطة تهمس في أذنـي.. قلت.. فهمت.. ما لم أفهمه من الأطباء.

غدا الموعد..

لا يا صغيرتي

ابعدي عني.. أنت لا تعرفينني.. وأنا أخاف عليك مني.. أنا أعرفك جيدا.. لا أعتقد.. أنـت مـا زلـت صـغيرة.. لا يقوى قلبك على صد تيار الهوى.. قالت بعصبية: قلت لك إنني أعرف عنك كل شيء.. فنان.. بوهيمي.. أعـرف كـل مغامراتك العلنية والسرية.. إنني أحب مغامرتك.

- تريدين أن تكوني إحدى مغامراتي.. نظرت إليـه بإغراء:
- ألا أعجبك – جحظت عينـاه دهشـة.. وجمـدت الكلمات على شفتيه.. لماذا تندهش- لجرأتك – أنا واحدة من الجيل – آه.. ذلك الجيل الغارق في بئر الثرثرة الحضارية.

أشعل سيجارته.. وسحب أفكاره وراء حلقـات الـدخان الزرقاء.. يقلب الأمر من جميع الوجوه لا بأس. ستكون ليلة مثيرة.. الفتاة جميلة.. وردة متفتحة.. لحن جميل ملهم لعمل فني جديد.. ولكن.. هل فقدت عقلي.. ومات ضميري.. إنها صغيرة.. في عمر ابنة أختي.. ما لك أيها المغـامر.. إنـي

لم أترك واحدة.. ولكن.. احذف هذه من السـطور.. الفتـاة جميلة.. وتعرض نفسها.. هائمة بك.. تريـدك.. لا بـأس.. لأرى النهاية معها.

تلاشت سحابات الدخان في الفضـاء اللانهـائي.. جـاءه صوتها الدافئ.. إلى أين ذهبت – بعيد إلى بعيـد- عنـي – لا بل معك.. في عينيك.. في غمـازات وجهـك.. جمالـك لا يقاوم – خاصة أنت.. لأنك خبير بالجمال ارتعشـت يـده لأول مرة.. وهي تمسك بها هامسة بحنان مثير.. ماذا بـك؟ لا شيء.. لا أدري.. ماذا أصابني؟ سعدت الفتاة لارتعاشـة يده.. ركزت هجومها عليـه.. عرفـت بحاسـة الأنثـى أن حصونه تتهاوى أمـام يـده بهـدوء.. وأطفـأ سـيجارته.. واستأذنت.. تشبثت بيده ولم تتركه حتى اتفقا علـى موعـد اللقاء في مرسمه الليلة. وأهلك؟ – كل فـي واد.. لا أشـغل تفكيرهم.

عاد إلى مرسمه.. أمسك ريشته ليكمل لوحة لم يستطِع أن يكملها منذ فترة طويلة.. كان يبحث عن الخط الفاصل بـين البراءة والشقاوة.. و.. وجده في تلك الفتـاة.. انتهـى مـن اللوحة.. استلقى على سريره.. يتفحص لوحاته المعلقة علـى الحائط والملقاة على الأرض.. اللوحات تتابع.. لكـل لوحـة قصة.. وقعت عيناه على صورة ابنة أخته الموضوعة فـي ركن بعيد.. تنهد.. إنها مثلك.. في عمرك.. كـم تمنيـت أن تكون لي ابنة مثلك.. مثلها.. ولكن لا وقت للزواج. شـعور غريب ينتابني.. شعور فطري رباني.. أردت وأنا معهـا أن أضعها بين ضلوعي لأحميها.. هذا هو سر ارتعاشة يـدي.. لم تفهم السبب الحقيقي لهذه الارتعاشة.. حسـبته الصـغيرة الحمقاء أني أضعف أمامها.. جاءه الصوت الغريب يدق في رأسه.. مالك أنت.. إنها هي التي تريدك.. لا ذنب لك – إنها صغيرة حمقاء.. إنها مثل ابنتي التي لم أنجبها بعـد.. ابنـة أحلامي التائهة في المجهول..

- يا مجنون.. لا تضيع الفرصة.. كلهن عندك قصـة جديدة.. لوحة جديدة.. لا.. لن يحدث.. لن ألـوث هذه البراءة.. قفز مسرعا كمن لدغه ثعبان.. انتزع ورقة من كراسته.. كتب فيهـا كلمـات.. ارتـدى جاكتته وغادر المرسم.. أعطى الورقـة للبـواب.. وأفهمه المطلوب.. جـاءت الفتـاة فـي الموعـد المحدد.. دقت جرس الباب.. يرتد إليها صداه باردا فترتعش أعماقها.. تضرب الجرس ثانيـة.. يرتـد إليها صداه باردا فتـرتعش أعماقهـا.. تضـرب الجرس بعصبية. لا أحد.. لا أحد..سألتْ البواب.. أنت الآنسة..؟ نعم أنا- ترك لـك الأسـتاذ هـذه الورقـــة.. فتحتهـــا.. قـــرأت كلماتـــه: لا يا صغيرتي.. لا.. ليست ارتعاشتي ضعفا، خوفًـا منك.. ولكن خوفا عليك يا ابنتي.. وكفي..

وعاد الأمل

قالت الأخت الكبيرة بعصبية:

- "بكرة كتب كتابك على الدكتور حمدي.. أما سـي فتحي بتاعك تنسيه خالص.. إنت عارفة إنه كـان هنا دلوقت وأنا طردته.. ويكون في علمـك.. يـا الدكتور حمدي، يا مفيش جواز.."

قالت الأخت الصغيرة:

- حرام عليك تحرميني من فتحي.. ده أملي الوحيـد اللي حايريحني من العذاب اللي شـايفاه معـاك.. دانت أختي الكبيرة وكان لازم تكوني حنينة علـي بعد موت بابا وماما، وتسيبك من حقدك والحاجات اللي كنت تعمليها معايا.. لكن بالعكس".
- "هي كلمة واحدة.. أنا ضيعت عمري علشانك إنت وماما بعد موت بابا علشان أصرف علـى البيـت وأربيك".

لاحت على شفتَي الأخت الصغيرة ظل ابتسـامة متعبـة: بطلي حجج.. ما تحوليش تهربي من الحقيقة.. إنت عارفـة كويس ليه قاعدة لحد دلوقت من غير جواز.. وأنا ذنبي إيه.. عايزة تحرميني من حبيبي.. علشان أقعد جانبـك وتعـذبيني زي ما انت عايزة.. حرام عليك.. هي ده وصـية مامـا.. استحملتك كتير.. لكن دي فرصتي الأخيرة".

انصرفت سعاد إلى حجرتها وارتمـت علـى السـرير.. أخرجت من صدرها آخر خطاب من فتحي. حبيبتي.. خُلقنا لنعيش معا.. تلاقت أرواحنا على البعد..

وتناغت قلوبنا قبل اللقاء.. وارتسمت صورنا في خيالنـا وحبنا لم يزل بعد جنينًا في رحـم الـزمن.. حبنـا ترعـاه السماء.. حبيبتي لن نفترق أبدا..

لقد صارعت الموت في ميدان القتـال.. فـي سـيناء.. وانتصرت عليه من أجلك أنت.. كنت أشعر أنـي سـأعود إليك.. وعدت.. لن نفترق أبدا.. سأقف بجانبك..

وضعت سعاد الخطاب بجانبها.. لن نفترق يـا فتحـي.. الحب الحقيقي لا يأتي إلا مرة واحدة.. لحظة واحـدة تمـر على الإنسان إما أن يحصل على ما يريد، وإما يفقـده إلـى الأبد.. غدا كتب الكتاب.. لا بد أن أفعل شيئًا لأخـرج مـن سجنها.. من دائرة حقدها الأسود.. من هذا العـذاب الـذى أعيش فيه.. فرصة لها لتمارس إذلالـي.. لا تنظـري مـن الشباك.. لا تزوري صديقاتك.. كنت أرى النشوة في عينيها عندما ترى الفرحة تموت في عيني.. وتنطفئ البسـمة مـن على شفتي.. عمرها الآن خمسة وثلاثون عاما ولم تتزوج.. ليس ذنبي.. هي السبب.. الفرصة الوحيدة التي لاحـت لهـا للزواج أضـاعتها بعنادهـا وعصـبيتها وأنانيتهـا وحبهـا للسيطرة.. تصرفاتها فيها خشونة الرجال.. كانت تلعب دائما مع الصبيان.. لقد عانت أمي منها الكثيـر مـن تصـرفاتها الرذيلة.. كانت تشعرنا دائما بأنها صاحبة فضل علينا؛ لأنها تصرف على البيت. مسكينة ماما.. كانت طيبة وعلى نياتها.. لا تملك إلا الصمت.. وعندما أنظر في عينيهـا أقـرأ كـل شيء.. أغمضت سعاد عينيها.. أمها تنظر إليهـا بحنـان.. سعاد.. أنت أصبحت كبيرة.. اختاري الطريق الصحيح فتحي

ابن حلال. لا تخضـعي لأختـك.. لا تضـيعي فرصـتك الوحيدة.. قومي يا سعاد.. قومي.. تنهض سعاد فزعة.. خير يا رب.. ماما يا حبيبتي.. دائما معي عندما أكون في أزمة.. لازم أعمل حاجة.. لا بد أن ألحق بفتحي قبل أن يسافر إلـى الميدان.. غدا كتب الكتاب.. أمسـكت بالخطـاب.. قـرأت السطور الأخيرة.. لا تنسي يا سعاد موعدنا المعتاد ومكـان لقائنا الأول.. ستجدينني هناك دائما في موعد لقائنا إنها نائمة الآن.. سأترك لها ورقة لتفهم كل شـيء.. سـأذهب إلـى فتحي.. سأخرج من دائرة الانحنـاء.. خرجـت مسـرعة.. خطواتها ثابتة.. رأسها مرفـوع إلـى أعلـى.. لا تنظـر.. خلفها..

وداع

رقيقة.. رشيقة.. جميلة.. عيناها سوداوان ترفان.. تبحثان عن شيء مخبأ وراء ستر المجهول.. فيهما بريق يستصرخك لإنقاذ صاحبته من خطر يتهددها.. قلت:

- عيناك بحر فيه يتوه أمهر الغواصين عندما يحاول اكتشاف أسرارك..

قالت مبتسمة مستنكرة في رضى:

- أنت تبالغ.. احترس في حديثك.
- لم أتعود في حياتي الاحتراس والحذر.. أنا سـفينة بلا شراع في هـذا البحـر الزاخـر.. تتلاطمهـا أمواجه.. الليل.. والوحدة.. والملل..

قالت:

- ولكن القلب اختارك.
- أنت جريء
- قصدك تعديت الحدود التي بيني وبينك.
- ليس بالضبط.

- اعذريني.. قدماي أدماهما الشوك في دربك الطويل.. وأنت تعلمين.. السهر أجهد عيني.. الهجر أضنى قلبي..

قالت:

- أفلاطون حضرتك.
- منذ ما رأيتك.. الماضي طويت صفحته.. وهجرت جلسات الصحاب والأخريات.
- محال.. أنتَ تعلم أني متزوجة.

قلت:

- في لحظة واهمة ساقوكِ إلى رجل غريب عنك.. لم تريه أبدا.. وقالوا هذا قدرك.. فاستسلمت لهذا القدر..
- أرجوك لا تجترئ على زوجي.
- تحبينه؟
- أحمل اسمه.
- ومعاملته؟
- سيئة.
- ماذا يرغمك على القيد؟

- النسمة المارة بينا تؤجج نار الشوق لن تطفئها مياه البحار.

قالت:

- الابتسامات
- ولا الابتسامات.
- أنت طماع.
- في الحب فقط.. أنا شـاعر.. صـناعتي صـوغ الأحلام..

أسكب كلماتي الميتـة علـى الأوراق.. أعـانق النجـوم المشبوحة مثلي طوال الليل على صـدر المسـاء.. خـواء خواء.. حديث النجوم والقمر.. خواء.. خواء.. حديث كـل البشر.. نفاق.. رياء الابتسامات المرسومة على الوجوه.

- وهل أنا أحلم.
- أنت واقعي الجميل الذي أعيشه بكل كياني.. ينقلني من أتون العالم المصطرع.. الكل يفترس الكـل.. كلنا سمك.. يتغذى الكبير بالصـغير فـي البحـر الكبير. في كل يوم ضحية مذبوحة على صـفحات الصحف نشيعها بالابتسامات. ثم نلقي بالصـحيفة..

أريد أن أنقذك قبل أن تتحولي إلـى حـروف فـي صحيفة.

- أنت قصيدة لم تكتب بعد.
- إنقاذك أبقى من القيد الثقيل عليك.
- إنه زوجي.
- حتى وهو يعذبك..
- قدري أتحمله.. صحيح هو يؤذيني.. الكلمة الحلوة يضن بها علي.. اللمسة الحانية يحرمنـي منهـا.. إنسان غريب عني.. ولكنْ.. بينا قدر..
- أنا فارسك.. مخلصك..
- لا أستطيع.. كل شيء بأوان.
- أكره الانتظار.
- مكتوب..
- والحرمان.
- مكتوب أيضا.
- من أجل من تقتلين نفسك معـه؟ لا تبخلـي علـي بالإجابة..
- أشياء لا تفهمها.. إنه في حاجة لي.

- وأنا أيضا في حاجة إليك.
- وهو يحتاج لي أكثر.. إنه عاجز.
- عذاب.. عذاب.
- الفراش يقترب من المصباح المشتعل منتحرا.
- الفراش لا يعرف
- وهذا هو الفرق بين الإنسان وبين بقية المخلوقات.
- وفي بئر الحرمان أغـوص.. فـي بحـار الحـب أغتسل.. إلى ليلي سأعود.. إلى النجوم المشبوحة.. إلى القمـر الوسـنان سـأعود.. منتظـرا.. مـع ذكرياتي.. أحضن طيفك.. أصبحت شـيئًا آخـر.. إلى قلمي سأعود أرسم صورتك.. أكتب قصـتك.. أنتظر مقدمك.. فقد تكسرين القيد يوما مـا.. فـي بطن عربة القطار غابت.. لوحت لها بالمنـديل.. وغاب القطار في كهف الأفق مع أشـعة الشـمس الغاربة..

الهدية

الساعة الثامنة صباحا.. لم تخرج هناء من حجرتها فـي موعدها كالمعتاد لتذهب إلى المدرسـة.. طَرقـات متتابعـة مفزعة على الباب.. قامت هناء.. فتحت الباب..

- "إنت مش رايحة المدرسة النهارده؟"
- لأ..
- ليه..؟
- تعبانة شوية.. والنهارده فيه حفلة في المدرسة لعيد الأم.
- يا للا تعالي خلصي شغل البيت.. فيه شوية غسيل و.. و..
- عندي مذاكرة.
- المذاكرة بعدين.. بعد ما تخلصي الحاجـات اللـي قلتها لك.

استدارت سعدية مقطبة الوجه مهمهمـة.. دلـع بنـات.. مدارس إيه.. ما تقعد في البيت أحسن تساعد في شغل البيت.

أغلقت هناء الباب.. هامسة.. طيب يا مرات أبويا.. أمرك مطاع..

استلقت على السرير باكية.. نادبة حظها بعد موت أمها.. لقد فقدت نبع الحنان.. وعمق هذا الإحساس انشغال والـدها في عمله.. وترك رعايتها إلى زوجته الثانية التـي تعاملهـا معاملة سيئة.. تعاملها كخادمة.. هناء لا تشكو.. عرفت أنـه لا فائدة من الشكوى.. جربتها مرارا ولم ينصفها والدها فـي كثير من الحالات.. دائما في صفها..

قامت هناء.. اتجهت نحو الدولاب.. أخرجت منه علبـة صفيح صغيرة.. فتحتها وأخرجت صورة صغيرة.. قبلتهـا ضمتها إلى صدرها.. أمطرتها بالقبلات.. بللتها بـدموعها.. شايفة يا ماما العذاب اللي أنا فيه.. محدش مهتم بي.. أعيش وحيدة.. بابا مشغول في الدكان.. ومرات أبويا كل يوم تنكد على.. مش عـايزاني أروح المدرسـة.. عـايزاني أقعـد أخدمها.. لكن.. يا ماما فاكرة كلامـك.. عـايزاك تـدخلي الجامعة وتبقى دكتورة.. مش ناسية الكلمتين دول.. علشـان كده صابرة.. ومستحملة العذاب النهارده عيدك.. عيـد الأم. كل سنة وانت طيبة.. كل بنت النهارده حاتقدم هدية لأمهـا..

وأنا مش قادرة.. لأنك بعيدة عني.. فاكرة يا ماما.. الفسـتان اللي قدمته لك هدية.. إنت محتفظة بيه.. كل هدية صـغيرة مني محتفظة بيها..

تقوم هناء إلى الدولاب وتأخـذ الفسـتان الـذي أهدتـه لوالدتها.. تدفن وجهها فيه.. تشم رائحته.. رائحـة أمهـا.. تقبله.. تخلع فستانها.. تلبس الفستان.. تنظر فـي المـرآة.. مبسوطة يا ماما.. على قدي.. طبعا.. هو أنا صغيرة.. فـي ثانية ثانوي.. فاكرة لما كانوا يقولوا إني زيـك.. شـبهك.. هدومك تلبسني.. أنا شبهك في كل حاجة.. طولي.. صوتي.. شكلي.. بابا دايما يقوللي لما يزعل مني.. أنت زي أمـك.. سبتيني وحيدة.. محدش مهتم بي.. لكن باسـتحمل علشـان أحقق أمنيتك.. أدخل الجامعة.. وأكون دكتورة زي ما قلـت يا ماما.. أقدم هدية.. لازم أقدم لك هدية..

فكرة.. خرجت هناء من حجرتها مسرعة متجهـة إلـى الباب الخارجي.. رأتها زوجة أبيها.. نادت عليها.. وقفت.. نظرت إليها وقالت:

- رايحه عند واحدة صاحبتي وجايه على طول..

رفضت.. هددتها إذا لم تطع أوامرها.. لم تجب هنـاء.. خرجت.. أغلقت الباب.. قطعت الطريـق إلـى المقـابر.. اقتربت من المقابر.. بائعو الورد كثيرون.. اشـترت وردة.. سارت وسط المقابر.. تعرف الطريق إلى قبر أمها.. لا تتوه عنه.. اقتربت منه.. وضعت الوردة على القبر وهمسـت.. كل سنة وأنت طيبة يا ماما.. وتنهدت في ارتياح وفي عينيها دموع..

(المؤلف)

- مدير تحرير مجلة الثقافة القاهرية.
- مدير تحرير مجلة الثقافة الأسبوعية القاهرية.
- عضو اتحاد الكتاب بمصر – عضو بمجلس إدارة الاتحاد فترتين متتاليتين.
- عضو جمعية الأدباء.
- عضو رابطة الأدب الحديث.
- مؤسس جمعية زهراء حلوان الأدبية بحلوان – القاهرة.

كتب للمؤلف:

- نقد تطبيقي: دراسات في الشعر والقصة القصيرة والرواية.
- هدم اللغة العربية.. لماذا؟
- نظرات نقدية في القصة القصيرة والرواية.